مجلة جامعة الملك سعود، م ٧، العمارة والتخطيط، ص ص ٦٣-١٠٢، الرياض (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)

الخصوصية: الدلالة والمفهوم في تشكيل الفراغ المعماري في البيئة السكنية

محمود محمد إدريس

قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٤١٢/١٢/٣هـ؛ وقبل للنشر في ١٤١٥/٣/٢٧هـ)

ملخص البحث. الخصوصية هي واحدة من تلك الكلمات التي لا تحمل معنى واحدًا بسيطًا إذ أن هناك مجموعة من العناصر الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية، تشكل معناها ومفهومها وفي هذه الدراسة نحاول استخلاص بعضًا من تلك المعاني والدلالات والتي يمكن من خلالها الوصول إلى مجموعة الأسس والأبعاد التي تشكل الفراغ المعماري في البيئة السكنية.

وقد ناقش البحث مسألة الخصوصية من خلال ثلاثة مستويات هي: تعريف الخصوصية ومفهومها والعناصر التي تشكلها والأبعاد المؤثرة على الحلول المعمارية. ويمكننا القول إن الخصوصية هي أحد أهم الأركان التي تشكل الفراغ المعماري في البيئة السكنية.

المقدمـــة

١ ـ الخصوصيّة: التعريف والمفهوم

الخصوصية من خاصة الشيء. والخصوص في اللغة يعني الانفراد أو الانحسار. وهو عكس العموم أو الانطلاق [١]. ويستطيع الإنسان أن يعبّر عن حاجته للخصوصية ببساطة شديدة جدًا، أو برد فعل ما أو بتعليق عفوي.

وإذا أردنا أن نعرّف الخصوصية، لوجدنا أن المعنى اللغوي فقط لا يعطي تعريفًا شاملاً ومتكاملاً للخصوصية. إذ أن هناك عناصر كثيرة ومتداخلة تؤثر في تشكيل المعنى والمفهوم للخصوصية. ويرى رابيورت أن لوضع المرأة في أي مجتمع تأثير ولو جزئي، في التباين والاختلاف الظاهرين في تفسير ماهية الخصوصية، والأبعاد التي يمكن أخذها في الاعتبار. وقد خلص إلى أن الخصوصية ظاهرة في غاية التعقيد والتنوع، وعلى المعماريين مراعاة ذلك في تصاميمهم [٢]. أما أيرون فيضيف للخصوصية بعدًا ثقافيًا وبعدًا اجتماعيًا وآخر فراغيًا. وكما أن للحواجز والمسافات دورهما في تحديد وتأكيد خصوصيّة الفراغ، فإن للبعدين الاجتماعي والثقافي دورهما في اختيار الأشخاص والمجموعات التي يمكن التفاعل معها. ويستطيع الفرد وضع الأسس التي يقرر بها اختيار الأفراد والمجموعات على ذلك النحو. ولعل الابتعاد عن الآخرين يمثل أحد الأساليب الاجتماعية المستخدمة في الاختيار وبالتالي للحفاظ على الخصوصية [٣].

ففي المجتمعات الإسلامية لا يكتمل المعنى إلا بإضافة أبعاد أخرى للخصوصية كملكية الحرم الخاص والحواس واحترام العلاقات الشخصية وحريات الآخرين، فهي تعتبر أساسية لمفهوم الخصوصية الصحيح، وهذا ما يؤكده حكيم [٤] من أن الخصوصية بمعناها المادي تعني على المستوى الشخصي ستر العورة، والملبس، وملكية الحرم الخاص للمسكن والدفاع عنه. وعلى المستوى العام تعني خصوصية الاتصال والتواصل (عدم الانطواء)، واحترام خصوصية الآخرين وعدم انتهاكها بالنظر أو السمع [٤]. وقد اشتملت تعاليم الدين الإسلامي الحنيف على كثير من المبادىء التي تحمي وتصون حرية الفرد وخصوصيته، واحترام حرية الآخرين وخصوصيتهم.

وعلى الصعيد الاجتماعي نجد أن الأدوار التي يمكن أن يلعبها الأفراد في المجتمع أو ما يتوقعه أفراد النسق الاجتماعي، من بعضهم البعض، يمكن أن يحدد التعامل بين أفراد المجموعة الاجتماعية الواحدة. فنجد أن ما يفعله أي فرد وهو بين أفراد مجموعته لا يستطيع فعله مع أفراد آخرين أو داخل مجموعة أخرى. وأيضًا فإن للمكانة الاجتماعية للفرد في المجموعة دورها في رسم حدود المعاملة بين الفرد والمجموعة، والخصوصية بصفة أدق. وتلعب الثقافة دورًا مهمًا ومؤثرًا في حفظ كيان الأفراد، وتنظيم علاقاتهم ومعاملاتهم مع بعضهم البعض، وبصفة خاصة الدّين ـ وهو أحد العناصر المهمة والمشكلة للثقافة ـ الذي

يلعب أكبر الأدوار في عملية التنشئة الاجتماعية التي تتم بواسطتها بناء القيم الاجتماعية والضوابط السلوكية لتحقيق أهداف المجموعة الاجتماعية [٥]. ويمكننا القول حينئذ أن اتباع الأفراد باستمرار لمعايير سلوكية معينة ـ رسمية وغير رسمية ـ يؤثر في تصرفاتهم والتي تصير فيما بعد عادات سائدة.

بالإضافة إلى ما ذكر من أدوار، هناك أيضًا اختيار الشخص للأفراد أو الجماعات التي يود التفاعل معها. وهذا الاختيار يقوم عادة على المفاضلة بين مجموعتين وهذا ما يسميه علماء الاجتماع بعناصر الدور كما يوضح ذلك إبراهيم عثمان من أن: الخصوصية مقابل العمومية والانتساب مقابل التحصيل وطبقًا لذلك فإن الخصوصية تتركز حول الذات أو المجموعة التي تربطه بها علاقة خاصة، كالأقارب والأصدقاء وأبناء الملة الواحدة. أما الاختيار على أساس العمومية فيعتمد على قواعد عامة تقوم على المبادىء والأنظمة كالبيروقراطية والدستور. والأصل هنا القواعد وليس الأشخاص. وتختلف المعايير التي يقوم عليها الاختيار من مجتمع لآخر. ويقوم الاختيار على أساس الانتساب، إلى الفئة من الأفراد دون الحاجة إلى مزيد من التمييز بينهم وعليه فإن الاختيار حسب الانتساب يجعل خطوط الاتصال غير مرنة. أما الاختيار حسب التحصيل ـ أو الكفاءة ـ فلا يقوم على أساس من هو الشخص وإنما على أساس قدراته ومهاراته [٦]. ويلاحظ من هذه البدائل في الاختيار أن الضرر يقع عندما يستعمل الفرد أحد هذه البدائل في غير موضعها.

وفي رأيي أن ما ذكر مجملاً، لا يكتمل إلا بتوافق العامل النفسي مع حاجة الفرد للخصوصية. ذلك لأن الإنسان يتفاعل مع المجتمع من خلال شعوره ودوافعه وسلوكه تجاه الانعكاسات وردود الأفعال الكائنة في المجتمع، الشيء الذي يدفع الفرد للتعامل مع الخصوصية بما يراه مناسبًا للمكان والزمان. وقد تتغير الصور والحالات مع تغير الظروف والسلوك الإنساني، مما يفرز تفسيرًا معينًا أو تبريرًا لموقف ما، وهذا يفسر إلى حد ما التباين الظاهر في مفهوم الخصوصية عند المجتمعات المختلفة والأفراد.

٢ ـ العناصر والأبعاد التي تشكل الخصوصية

يوضح الشكل رقم ١ تصورًا لمجموع العناصر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية التي تتداخل لتشكل الخصوصية والأبعاد التي تؤثر على أنواع الحلول المعمارية ورسم حدود التفاعل معها.

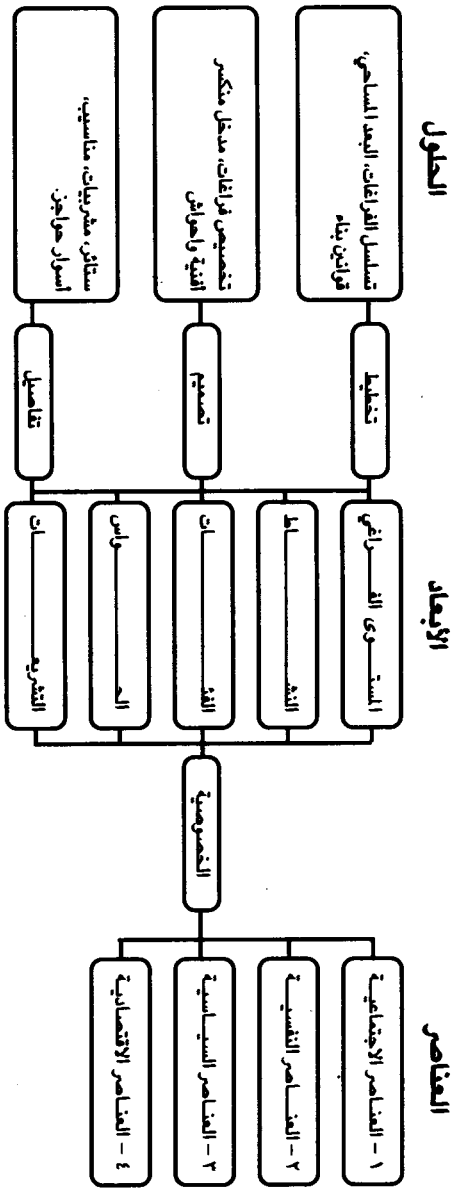

شكل رقم ١ . العناصر التي تشكل الخصوصية والأبعاد التي تؤثر على الحلول المعمارية

العناصر الاجتماعية والنفسية والسياسية والاقتصادية

السياسة والاقتصاد عنصران مؤثران في حياة الإنسان. ويشكلان الخصوصية من مبدأ القوة والتشريع. وتسهم الموارد الاقتصادية كقوة دافعة، في تشكيل المجتمع سلبًا أو إيجابًا. فالذي يحدث هو أن القوة السياسية والاقتصادية تفرض القوانين والتشريعات التي قد تلغي بها بعض الضوابط الاجتماعية، أو تحدد بها سلوكيات معينة. وقد يكون للغنى أو الفقر تأثيرًا كبيرًا على الخصوصية وذلك إما بالتخلي عنها كليًّا أو جزئيًّا. وقد يكون هذا التخلي مؤقتًا أو دائمًا. وحول هذا الموضوع يذكر ستلقو أن الخصوصية تأثرت بالنواحي الاقتصادية خلال فترة الازدهار الاقتصادي في الولايات المتحدة في بداية القرن العشرين، حيث بدأ السكان يكشفون واجهات مساكنهم الأمامية وحدائقهم العامة، للتعبير عن الثراء والمقدرة المالية على دفع ثمن المياه لري حدائقهم. وانقلب الحال تمامًا أيام الكساد والركود الاقتصادي، الذي ضرب العالم في الثلاثينات من القرن الحالي حيث بدأ الأغنياء في بناء الأسوار وحجب الرؤية عن ممتلكاتهم. الأمر الذي دفع السكان إلى فرض قدر أكبر من الخصوصية [٧].

وينظر المجتمع الأمريكي إلى الخصوصية على أنها مظهر من مظاهر القوة والسُلطة والجاه. وقد كانت ولاتزال هي الوسيلة المثلى للتعبير عن المركز الاجتماعي والإعلان عن الثروة والرفاهية. وأن عبارات مثل «الخصوصية هي قمة الترف والرفاهية» تستخدم دائمًا في الإعلان عن المنتجعات لجذب الناس للإقامة فيها [٣]. وهذا المفهوم يحدد الأسس والمعايير للخصوصية حسب المستوى الاقتصادي والمركز الاجتماعي للفرد.

أما فيما يختص بالعلاقات الثقافية والسلوك، فيلعب الدّين ـ خاصة الدّين الإسلامي في مجتمعاتنا ـ أهم الأدوار في تشكيل الخصوصية. فقد كرم الله الإنسان بأن شرع له من القوانين الكثير لتنظيم حياته. وخصه بالعقل لاستنباط الحلول من الكتاب والسنة. وقد ذكر الإمام أبو زهرة أن الشريعة قانون ديني يرجع في أصله إلى وحي السماء. فالحاكم فيه هو الله وحده ويكون عمل العقل حينئذ في استخراج النصوص الشرعية، وبيان قواعد الشرع العامة التي تعد نبراسًا يهتدى بهديه ويقتبس من نوره لتطبيق تلك المعاني على ما يجد من أحداث [٨]. وهذا هو الأصل في تشابه السلوكيات في المجتمعات التي تدين بالإسلام، إذ تعكس الدوافع الإيمانية الكامنة وراء التزامها بالأوامر والنواهي في أصولها الشرعية. أو ما كان نتيجة لاجتهاد أئمة المسلمين. ولاشك في أن امتثال الكثيرين لهذه الضوابط الإلزامية

ناشيء من كوامن إيمانية، أقوى من أي حواجز مضروبة أو أساليب مستخدمة لتأكيد الخصوصية.

وتشير بعض الدراسات إلى أن الأفراد الذين هم من أعراق وخلفيات ثقافية مختلفة يتباينون في سلوكهم تجاه الفراغ، حيث نخلص إلى أن ذلك هو انعكاس طبيعي للأعراف الثقافية الناشئة من العادات والتقاليد التي تتحكم في استخدام الفراغ في تلك المجتمعات. ويمتد ذلك السلوك إلى البيئة المبنية التي تتأثر بدورها بالقيم والأعراف التي تحكم المجتمع. وبذلك تكون البيئة المبنية كالوعاء الذي يحفظ وينقل تلك القيم والأعراف إلى الأجيال التالية [٩].

وقد صنفت المجتمعات التي تعيش في مناطق البحر الأبيض المتوسط، بأن لها إحساسًا بالألفة والتواصل. بعكس المجتمعات التي تعيش في أوروبا وأمريكا الشمالية التي تصنف على أنها مجتمعات محافظة وتتسم بالحذر، ولهذا فإن الخصوصية في المجتمع الأوروبي والأمريكي تعني الانطواء والعزلة عن المجتمع. وأن يهتم الشخص بشؤونه بعيدًا عن الآخرين. ويختلف ذلك عن المفهوم العربي والإسلامي للخصوصية الذي يعني التوازن بين خصوصية الفرد والمجموعة. إذ أن الخصوصية لا تمنع التواصل الاجتماعي، ولا تعني الانعزال الكلي والانفصال عن المجتمع. وبالتالي تكون الخصوصية أداة لتنظيم التواصل والتداخل مستنيرة بضوابط الدّين وسلوكيات المجتمع الذي يعيش فيه الفرد.

ويعتقد بعض الباحثين أن هناك شعورًا داخليًّا يسيطر على الإنسان، ويفسر ذلك على أنه عالم نفسي داخلي يعيش فيه الإنسان. ويتشكّل هذا العالم الداخلي بعناصر البيئة الثقافية والمجتمع الخارجي. ويحدد العالم النفسي الداخلي طبيعة العلاقات التي تربط الأفراد ببعضهم من حيث التقارب والتواصل، أو التباعد أو الانطواء [٩] وهذا بالتالي يشكّل المفهوم المركب والمعقد لاستخدام الفراغات ويعطيها الصبغة الوظيفية. بالإضافة إلى تحديد الفئات والأفراد الذين يمكن السماح لهم بدخول واستخدام الفراغ.

وخلاصة القول، أن للعناصر السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية بالإضافة إلى التركيبة النفسية للشخصية وتفاعلها مع المجتمع أثرًا كبيرًا وأساسيًّا في تشكيل مفهوم الخصوصية وتفسيرها. وقد يكون التأثير إما سلبًا أو إيجابًا، أو جزئيًّا أو كاملاً، وبه تتشكل الأبعاد.

الأبعاد التي تشكل الحلول المعمارية

هناك خمسة أبعاد تشكل الخصوصية هي المحصلة لامتزاج وتداخل العناصر المذكورة أعلاه. وهذه الأبعاد هي الأساس للحلول المعمارية من حيث تشكيل الفراغات وترتيبها وتحديد مستوياتها وتفاصيل عناصرها معماريًا وتقنيًا. وهذه الأبعاد هي:

البعد الأول، المستوى الفراغي: يؤثر هذا البعد على ترتيب وتسلسل الفراغات في المناطق السكنية والوحدات. فعلى المستوى التخطيطي تقسم المدينة إلى مناطق سكنية، وتجارية، وإدارية، وصناعية، وخلافه. ويكون لكل منطقة قوانينها التنظيمية والتخطيطية التي تؤكد خصوصيتها. ومثال ذلك التسلسل الفراغي وتدرجه في المناطق السكنية. فالأحياء السكنية مقسمة إلى مجاورات ثم إلى مجمعات سكنية أصغر. وأن خصوصية واتصال كل مجموعة سكنية بالأخرى تحددها العلاقات الخاصة بين السكان وعاداتهم وتقاليدهم. وتتدرج الخصوصية حتى تصل إلى مستوى المكونات الأساسية للتصميم. فتقسم الوحدة السكنية إلى مجموعات فراغية تحددها طبيعة النشاط، كفراغات النوم، والمعيشة والطبخ، والأحواش، والساحات... وهكذا.

وقد يبدو للوهلة الأولى، أن المتغيرات التي حدثت في المجتمع الحالي، قد ألغت الخصوصية في المسكن والبيئة السكنية. إلاَّ أن ذلك ليس صحيحًا، فمازالت الخصوصية تمارس باختلاف أبعادها في كل المجتمعات. ويذكر فيبي أن المدن والبيئة السكنية في الغرب تفتقر إلى الخصوصية. وأن الهدف الرئيسي لتخطيط المجاورة، يجب أن يكون احتواءً وسترًا وتنظيمًا للفراغات الخارجية، لخلق الخصوصية اللازمة لملاعب الأطفال، وأماكن استرخاء الكبار، وعزل حركة السيارات بالإضافة إلى تغطية المواقف وعزلها من تلك الفراغات. كما يرى أن التلصص بالنظر من خلال النوافذ تزعج، وتؤثر على خصوصية المساكن. ويعزو ذلك إلى أن المسافات التي تفصل بين المساكن ليست بالقدر الكافي لتمنع ذلك (المعروف أنها عشرة أمتار)، ويريد لقوانين البناء والبلديات أن تغير ذلك. [١٠]

ويفاضل قارثر بين المدينة الإسلامية الصحراوية والمدن الغربية فيقول إن للمدنية في الصحراء تسلسلاً متوازنًا بين الفراغات العامة والخاصة. وأن كل فرد في تلك المدن يستحوذ على قدر من الخصوصية من هذه الفراغات بعيدًا عن أعين المتطفلين، وبمعزل عن الضوضاء. كما أن المباني العامة ومباني الخدمات، مثل المساجد، والمدارس، والأسواق

(البـازارات)، تخدم التكـامل الوظيفي بينها وبين المساكن. ويساعد ذلك على التواصل الاجتماعي. وبالتالي تكون الخصوصية جزءًا من هذا الترابط. ويذهب إلى أن هذا التمازج يبين ماهو عام وخاص قل أن تجده في أي من الحضارات أو الثقافات الأخرى. إذ أن ما يميز هذه المـدن هو الانسياب والتـواصـل بين المستـويات المختلفة للفراغات والوظائف والاحترام القائم لكل ما هو عام وخاص. وهذا في رأيه ما تفقده البيئة الغربية تمامًا. وهو تحديد الخصـوصية والعمومية في التخطيط الحضري للمدينة والفراغات المختلفة. [١١] (شكل رقم ٢).

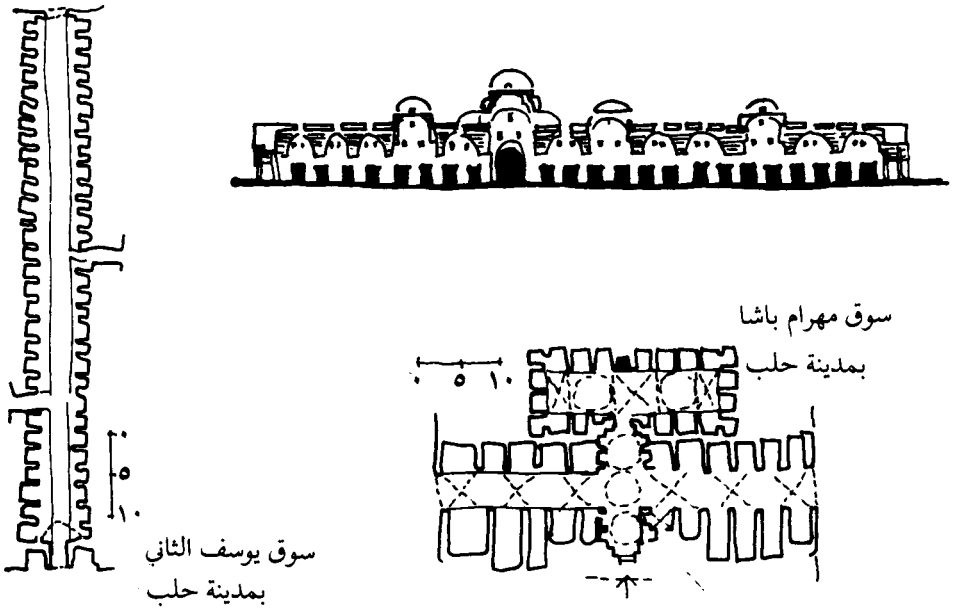

شكل رقم ٢. التداخل والتواصل والانسياب بين الفراغات في المدينة الإسلامية القديمة [١٢].

وتخوف بعض الباحثين والمهتمين بأمر المدن في الغرب من أن المبالغة في انتشار وسائل الترفيه الخاص والشخصية وتنوعها كالتلفزيون، والفيديو، والألعاب الإلكترونية، تساعد على عزل الناس ومنعهم من ارتياد أماكن الترفيه العامة، وبالتالي تحد من اتصال الناس. وأنه في سبيل الحفاظ على الخصوصية الشخصية والمبالغة فيها، يلجأ الناس إلى ترك المدينة والنزوح إلى الضاحية، وأن هذه المبالغة في الانطواء والانعزال عن الآخرين، ربما تؤدي إلى

حدوث خلل في التسلسل الفراغي للمدينة، فتتلاشى بعض المرافق والفراغات العامة. وتكون المحصلة النهائية ضمورًا في النمو الحضري وتمزقًا في نسيج المدينة المعاصرة [١٣].

وخلاصة القول إن هذا البعد في مستوى الخصوصية يشكل عنصرًا مهمًا من عناصر التخطيط الحضري وتصميم المسكن. وأنه بالرغم من عمومية الفراغات الخارجية كما يبدو ظاهريًا، فإنها في الواقع تتمتع بقدر كبير من الخصوصية، إذا تمعنا في الوظائف والنشاطات التي تتم فيها. لذا يجب أن يتم تخطيطها بفهم يكون معه تداخلها وانسيابها بحيث تؤدي كل وظيفة مهمتها من خلال الخصوصية التي تفرضها طبيعة الفراغ. ويمكن أن يتم ذلك بواسطة تنسيق المواقع والتدرج في المستويات الوظيفية للفراغات بحيث يمكن لقوانين البلديات تنظيم الوظائف والنشاطات ولا تفرض قانونًا من سطوة التشريع الفوقية ولكن من واقع احترام الوظائف وتخصصها.

البعد الثاني، النشاط: يمارس الإنسان أنواعًا مختلفة من الأنشطة، على المستويين العام والخاص. وتتأثر طبيعة النشاط إلى حد كبير بدرجة مشاركة الأفراد والمجموعات وتفاعلها، في ظل الثقة المتبادلة والقيود الاجتماعية، وأنواع المضايقات التي يمكن أن يتعرض لها الفرد.

وتصنف الأنشطة العامة التي يمارسها الإنسان إلى أنشطة اجتماعية كتجمعات الأفراح والمآتم. وأنشطة رياضية، وأخرى تعليمية وثقافية. هذا بالإضافة إلى مسارات الحركة بين الفراغات، وتلعب أنواع الأنشطة دورًا مهمًا في رسم حدود العلاقات الوظيفية في المدينة. وكذلك تحديد موضع وحجم الفراغ وترتيبه بين الفراغات الحضرية الأخرى.

أما الأنشطة الخاصة، مثل الطبخ، والنوم، والاستحمام، وغسل الملابس، وقضاء الحاجة، فإنها تتطلب أنواعًا مختلفة من الفراغات داخل الوحدة السكنية. وإن الصلة بين هذه الفراغات تختلف حسب التفسير والمفهوم لمعنى الخصوصية عند الفرد والمجتمع. وقد تمارس أنشطة مختلفة في فراغ واحد. وقد يكون مطلوبًا تخصيص فراغ مستقل لكل نشاط، حيث لا يقوم النشاط إلا بتوفير أكبر قدر من الخصوصية. وكمثال لذلك نجد أن ممارسة أنشطة كالنوم، أو الاستحمام، أو قضاء الحاجة، يجب أن تتم بمعزل عن المجموعة وفي فراغات منفصلة تؤمن الخصوصية الكاملة لممارستها. كما يمكن ممارسة بعض الأنشطة في فراغ واحد إذا توافر لكل منها مقوماته الذاتية، على ألا يتسبب أي من هذه الأنشطة المماثلة

في إزعاج بعضها البعض. وقد يكون لهذا البعد أثره في تحديد فراغات متخصصة لأنواع الأنشطة المختلفة ـ كل حسب طبيعته من حيث الوضع والصلة ومستوى الخصوصية المطلوب لممارسة النشاط.

البعد الثالث، الفئات: الفئات التي ربما تظهر الحاجة لخلق الخصوصية لها في البيئة السكنية هي على المستوى العام: فئات الأغراب غير المرغوب فيهم، والأغراب المرغوب فيهم كالضيوف والخدم. وعلى المستوى الخاص: فئات الأقارب وأفراد الأسرة والذين يمكن تقسيمهم إلى رجال ونساء وأولاد وبنات وأطفال. وتلعب العلاقة التي تربط الفرد بأفراد آخرين أو مجموعة ما في المجتمع ببعضهم البعض، دورًا مهمًّا في تحديد هذا البعد من الخصوصية. وترسم الحدود التي تحدد تلك العلاقة، والتي يتم من خلالها التعاون والتداخل بين الفرد والأفراد الآخرين، أو من خلال فئات الأسرة. وربما كان لفظ أقرباء وأغراب مستعملاً كتصنيف للفئات لرسم الحدود. فدخول الفرد لمسكن الغير يتم عبر سلسلة من الخطوات وبوعي لنوع العلاقة القائمة في ضوء محاذير تفرضها حرمات معينة وخصوصية من نوع ما يجب مراعاتها، فتتم الزيارات مثلاً في مواعيد معروفة مسبقًا.

ففي البيرو مثلاً يقسم المسكن إلى أقسام بطريقة تسمح بدخول الفئات المختلفة كالأصدقاء الحميمين والزوار العاديين إلى أقسام البيت المختلفة، كل فئة حسب درجة العلاقة بالأسرة. بعكس ما يحدث في كاسافر ادرو في مكسيكو سيتي حيث عزل السكان أنفسهم عن بقية أجزاء المدينة، ففصلت المنطقة عن الشارع الرئيسي بسور عال ومحلات تجارية. وبنيت مساكنهم، التي هي في الغالب حجرة واحدة بدون نوافذ خارجية، منفصلة عن بعضها البعض بمسافة تزيد على اثنى عشرة قدمًا. إذ أن السكان في تلك المنطقة لا يتزاورون فيما بينهم بالرغم من أنهم من القبيلة نفسها [٣]. ومن المثالين المذكورين يتضح الاختلاف الكبير في الطريقة التي يتم بها تصنيف الفئات والتعامل معها، وكيفية تأثير ذلك على تصميم وتشكيل المسكن والبيئة المبنية.

أما بخصوص العلاقة بين أفراد الأسرة في المجتمعات الإسلامية، فهناك الفصل بين النساء والرجال في المجالس. وكذلك الفصل بين الأولاد والبنات شرعًا. وهناك أمثلة متشابهة لهذا النوع من الفصل بين فئات الأسرة نجده في مجتمعات أخرى. كما ذكرت ذلك

الباحثة ماريا ميلر من أن سكان قبيلة كيتالي في كينيا يقسمون مساكنهم والتي تتكون في معظمها من حجرة واحدة إلى قسمين رئيسين: قسم خاص بالوالدين وآخر لبقية أفراد الأسرة، مستخدمين ستارة أو ستائر من نوع ما. ويكون محرمًا على الأبناء دخول الجزء الخاص بالوالدين دون استئذان. وتظل كل فئة ملتزمة بذلك حتى في حالة عدم وجود الستائر. وكذلك الحال عند قبائل ليو في كينيا حيث يحرم دخول الأبناء المتزوجين إلى الجناح الخاص بآباء وأمهات الزوج أو الزوجة [١٤].

وهذا الوضع نجده متطورًا في المجتمعات الإسلامية حيث تحترم خصوصية كل فئة من الفئات وترسم لها الحدود المناسبة. فقد حثنا الإسلام على ألا ندخل البيوت حتى نستأذن ونسلم على أهلها. وكذلك لا يدخل الطفل الذي بلغ الحلم على أبويه في مخدعهم دون استئذان في الأوقات المحرمة. إذ حثت الشريعة على التفريق بين الجنسين من الأطفال في المضاجع. وهذا يفرض تخصيص الفراغات للفئات المختلفة.

البعد الرابع، الحواس: يؤثر هذا البعد بطرق متفاوتة على الخصوصية. وتسيطر حاستا الإبصار (الرؤيا) والسمع (الصوت) على تشكيل الحلول السائدة، بينما تؤثر حاسة الشم على ترتيب بعض الفراغات. أما حاسة اللمس وحاسة التذوق فتأثيرهما أقل بكثير. وفي معنى حديث الضرر (لا ضرر ولا ضرار ـ الحديث) نلمس أثر الحواس (الجوارح) على خصوصية الفرد والمجتمع. وتأثير ذلك على البيئة المبنية. وقد أوضح جميل أكبر أن حديث الضرر ذو سيطرة خارجية على الأعيان، وسيطرة داخلية على تصرفات السكان. فمن المنطقي أن يكون الضرر تجاه حواس الفريق المتضرر، وهو على ثلاثة أنواع: بصري، وسمعي، وشمي. فالضرر البصري يأتي بكشف عورة الدار المقابلة. والضرر السمعي يأتي من تغيير وظيفة المسكن إلى ممارسة الحدادة مثلاً مما يؤذي السمع. والضرر الشمي ينتج من تحويل الجار منزله إلى مدبغة ذات رائحة كريهة. ويضيف أن الضرر البصري يختلف عن الضررين الآخرين في أنه مقترن بسلوك السكان [١٥]. وفيما يلي شرح مفصل لدور الحواس وتأثيرها على الخصوصية.

حاسة الإبصار: هي أكثر الحواس تأثيرًا وارتباطًا بالخصوصية. فالعين هي العضو الذي بواسطته يستطيع الإنسان الإبصار والنظر إلى الأشياء التي حوله. وبدراسة إمكانية

العين ومقدرتها نجد أن هناك حدودًا لعملية الإبصار. وأن هذه الحدود إما خاصة بتركيبة العين ووظيفتها أو هي محددات خارجية كالضوء، والمسافة، وحجم الجسم المعني، واللون، والحركة، وزاوية النظر. وأن مشاهدة الأجسام كصورة واضحة تعتمد على قوة الضوء في مجال الرؤيا، ومقدار المسافة التي تفصل الجسم من العين وزاوية الإبصار.

ويتأثر وضوح الرؤيا بعامل السن، خاصة التركيز على التفاصيل، ويوضح الشكل رقم ٣ التناقص الذي يحدث في حدة الإبصار مع تقدم السن. كما تقل رؤية التفاصيل مع حركة الجسم فيحتاج الإنسان إلى تفاصيل أكبر في الجسم المتحرك مقارنة بالجسم الثابت. ومن ناحية أخرى تكمن أهمية العلاقة بين كمية الإضاءة وزاوية النظر في تحديد ما إذا كان الشخص يرى الأشياء أم لا، كما يظهر الرسم الثلاثي الأبعاد في الشكل رقم ٤. وقد كان

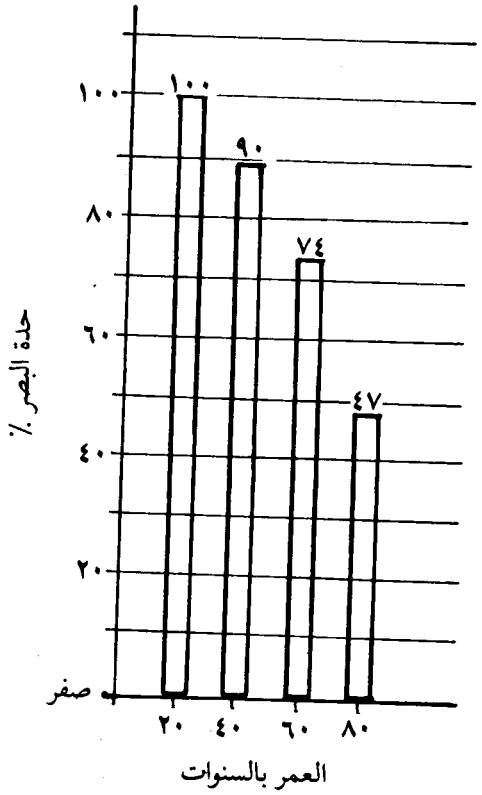

شكل رقم ٣. تراجع حدة البصر مع تقدم السن [١٦].

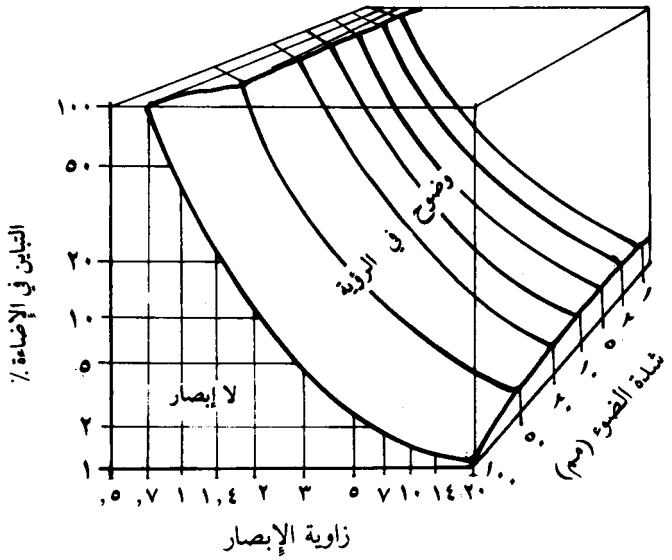

شكل رقم ٤. تأثير المسافة في مقدرة الإنسان على الإبصار [١٦].

ابن الهيثم سبّاقًا في هذا المجال حيث حدد المعاني التي هي من خواص البصر، والتي باجتماعها يتم الإبصار وهذه الخواص هي: المسافة، عدم انكسار خطوط الرؤيا، والحركة، والعظم، واللون، والوسط الشفاف. بل وأضاف إلى ذلك اجتماع الإدراك والترجمة للمعاني التي يراها الشخص [١٧].

ومما ذكر يمكن منع النظر والتحكم في حاسّة الإبصار من خلال السيطرة على الإضاءة، والمسافة ووضع الحواجز والستائر لكسر خطوط الرؤيا. وعلى مستوى التخطيط العمراني يمكن ضبط المسافات بين المساكن، وتحديد الارتفاعات، وتوجيه الفتحات. وعلى مستوى التصميم المعماري، يمكن تقسيم الفراغات بقواطع مصمته، واختيار مواد للبناء غير نفّاذة، واستخدام الستائر والمشربيات والزجاج المعشق غير المنفذ للنظر في النوافذ.

حاسة السمع: يعرّف الصوت فيزيائيًا على أنه تقلبات في الضغط تحدثها زحزحة جزيئات الهواء الناقلة للصوت في الوسط الهوائي المرن. ومن الناحية الفسيولوجية فإن زحزحة الجزيئات هي التي تنتج الترددات السمعية المثيرة لحاسة السمع [١٨].

وتعتمد حاسة السمع على الأذن في استقبال الأصوات وترجمة معانيها، ويستطيع الإنسان سماع الأصوات التي تكون تردداتها السمعية ما بين عشرين هيرتز إلى عشرين ألف هيرتز. وبالرغم من أن قوة الصوت من أي مصدر يمكن قياسها بدقة، إلا أن سماع الأصوات وتفسيرها بواسطة الأذن لا يمكن قياسها بالطريقة نفسها. وأن تفسير قوة الأصوات وضعفها تختلف من شخص لآخر حسب مقدرة الأذن في التقاط الترددات السمعية. ولذلك فإن تفسير الأذن للأصوات يكون في الغالب شخصي. ويستطيع الإنسان تحديد مصدر الصوت بدقة أكثر إذا كان الصوت يأتي من الجهة اليمنى أو اليسرى (موضع الأذنين) أو من أعلى أو من أسفل بدرجة أقل. ولا يستطيع تحديد مصدر الصوت بدقة إذا كان الصوت قادمًا من الخلف.

ومن خصائص الصوت المهمة التي يمكن أخذها في الاعتبار عند تخطيط وتصميم الفراغات هي:

١ ـ انتشار الموجات الصوتية في شكل كروي، إلا أن الصوت يكون قويًا في اتجاه المحور الطولي العمودي لمصدر الصوت.

٢ ـ تضعف حاسة السمع مع تقدم عمر الإنسان.

٣ ـ تقل قوة الصوت مع زيادة المسافة التي تفصل بين مصدر الصوت والشخص المتلقي له.

٤ ـ الترددات السمعية المنخفضة والمستمرة لها تأثير على حجب الترددات العالية.

ويمكن الاستفادة من تلك الخصائص في تحسين البيئة المبنية. فعلى مستوى المخطط العام للمدينة يمكن فصل خطوط الحركة الكثيفة وتحويلها بعيدًا عن المناطق السكنية. وكذلك استخدام الأحزمة الخضراء حول المساكن مع استخدام الستائر لكسر الموجات الصوتية. وعلى مستوى الموقع فإن ارتداد خطوط البناء عن الشوارع واستخدام كتل المباني وتوجيهها لخلق الساحات والأفنية المعزولة عن الضوضاء وتنسيق الموقع تساعد كثيرًا على خلق الخصوصية.

أما على مستوى تصميم الوحدة فيمكن تصنيف الفراغات إلى مجموعات حسب تفاعلها مع الأصوات. فحجرات النوم والاستقبال تحتاج إلى هدوء أكثر من حجرات الأطفال والمطبخ مثلاً. وفي الجانب الآخر تكون صالة المعيشة مصدرًا للضوضاء. كما

يساعد استخدام عناصر مثل خزانات الملابس وأرفف الكتب في عزل الأصوات بين الفراغات. أو استخدام النباتات أو النوافير وشلالات المياه واستخدام المناسيب لعزل الصوت في الفراغ الواحد. هذا بالإضافة إلى استخدام الحشوات والمواد العازلة للأصوات في داخل القواطع والأبواب.

حاسة الشم: تعتمد حاسة الشم على حركة واتجاه الهواء في نقل الروائح، وتعتمد كذلك على مقدار المسافة التي تفصل بين مصدر الروائح والأنف. ويمكن عزل الرائحة من مصدرها بالتحكم في حركة الهواء بوضع الستائر أو استخدام مراوح الشفط كما يحدث في الحمامات والمطابخ. ويمكن عزل الروائح من مصدرها في الفراغات المعنية بتصميم تلك الفراغات بحيث يكون اتصالها بالفراغات الأخرى عبر فراغات وسيطة مثل الردهات أو سلسلة من الأبواب أو بوضع الفراغ المعني في موضع يكون فيه أقرب إلى الهواء الخارجي حتى يسهل السيطرة على الروائح المنبعثة منه.

وقد اعتبر الفقهاء الضرر الناتج من الرائحة أو الدخان ضررًا شديدًا يجب قطعه. وكذلك يجب إزالة ضرر رائحة المرحاض أو فتح قناة لا يغطيها صاحبها بقرب دار الجار ويجبر صاحبها على منع الرائحة. ومن المؤكد أن هذه الحركية قد أثرت على البيئة المبنية فتباعدت دورات المياه عن حوائط الجيران قدر الإمكان، واستبعدت الوظائف المحدثة والمضرة بالجيران من الأحياء متى ما اشتكى الجيران من ضررها وتلاقت الشبابيك مواجهة لبعضها البعض [١٥].

حاستا اللمس والتذوق: بالرغم من تأثير هاتين الحاستين غير القوي أو المباشر على الخصوصية، إلا أننا نفرد لهما مساحة صغيرة لاستكمال المعلومات.

تعتمد حاسة اللمس على الأطراف في الإحساس بالأشياء، كما تعتمد حاسة التذوق على اللسان في معرفة طعم الأشياء. ولا يكون تأثير هاتين الحاستين قويًا إلا بالالتصاق والاحتكاك بين الأجسام في حالة الزحام مثلاً. وهنا يمكن استخدام الحواجز والستائر، وتأكيد مبدأ الفصل بين الجنسين بتحديد أنواع المباني والفراغات، واستخدام المسافات والمداخل المتعددة بالإضافة إلى تحديد مسارات الحركة للفئات المختلفة.

البعد الخامس، التشريعات: يحث الدين الإسلامي الفرد على الامتثال لقواعد الآداب والسلوك القويم في معاملاته وحياته اليومية، وذلك لصيانة حقوق الغير واحترام

حقـوق الفـرد. فمن السلوك الإسـلامي القـويم الـذي يخدم الفرد والمجتمع، نجد أن المسلمين مطالبون بغض البصر وعدم استراق السمع وستر العورة. وفي سورة النّور (الآيات ٧، ٢٨، و ٥٨) تنص على مبـدأ الاستئـذان قبل الدخول للبيوت والدخول للوالدين، وفصل الذكور والإناث وهي آيات تؤكد البعد الشرعي للخصوصية.

وقد اهتم الفقهاء بأمر المدن والمجتمعات السكانية بأن استنبطوا الأحكام والقوانين المنظمة للبناء مستنيرين بقاعدة لا ضرر ولا ضرار وبالتجارب العملية لواقع المجتمعات الإسلامية. وقد كانت تشريعات المباني وتنظيم المدن والمجاورات السكنية عامة وشاملة. وتبدأ التشريعات الخاصة بالأسوار بين الجيران، وحقوق الملاك والدخلات والشوارع والأزقة إلى أن تشمل تحديد الأماكن العامة، والصناعات، والأسواق، والمساكن، وحقوق الأفراد والجـماعات. وقد لعبت الخصوصية دورًا بارزًا في تحديد تقسيم الأراضي، والشوارع من حيث تحديد الفئات والمستويات الفراغية. وكذلك بيان حرمة الجوار واحترام حقوق الغير وعدم انتهاكها. وبيان الضرر من الحواس خاصة البصر والسمع والشم. وقد وجد الكثير من النوازل المسجلة التي تؤيد ذلك كما أوضحه كثير من الباحثين في بحوثهم التي يمكن الرجوع إليها (انظر الهذلول [١٩] و أكبر [١٥] والعمايرة ورزق [٢٠] وحكيم [٤]).

وإذا نظرنا إلى الأعراف والقوانين البشرية السائدة نجد أن الإنسان بطبعه ميال إلى تأكيد الخصوصية. وقد ظهر ذلك فيما ذكر آنفًا من أن كل المجتمعات قديمها وحديثها، البدائي والمتطور على حد سواء، تمارس الخصوصية ويجدونها مهمة لحياتهم. وقد أجريت كثير من الدراسات والأبحاث ووضعت القوانين للحفاظ عليها.

٣ ـ الخصوصية : الحلول والمعالجات في البيئة السكنية

المقصـود بالبيئة السكنية هنا هو مجموعة العوامل الطبيعية، والعلاقات الاجتماعية والسلوكية، والمستويات الاقتصادية التي تؤثر في قيام واستمرار مجموعة السكان في منطقة ما، بالعيش في وفـاق مع بعضهم البعض، والتفـاعـل الإيجـابي أو السلبي مع الحيّز المادي (المسكن) الذي يحتوي على كل تلك العلاقات والسلوكيات الإنسانية المختلفة.

وينعكس هذا التفاعل على تشكيل الفراغ الذي يعيش فيه الإنسان سواء كان هذا الفراغ داخليًّا أو خارجيًّا. وقد طغت الخصوصية على كل المشكلات الاجتماعية وغيرها والتي تؤثر على تصميم المسكن وتشكل فراغاته المختلفة. وهناك الكثير من الحلول المعمارية الدالة

على ذلك. وسوف نستعرض فيما يلي بعض النماذج لمساكن في بيئات مختلفة، تبدأ بالمسكن النواة وتنتهي بدراسة موسعة لمدينة أم درمان السودانية.

خيمة البدو

يتخذ البدو من الخيام مساكن لهم، فالخيمة في الأصل تعطي فراغاً واحداً متصلاً. وعلى الرغم من ذلك فإن الحاجة إلى الخصوصية استدعت تقسيم هذا الفراغ إلى فراغات متخصصة مستعملين في ذلك أكياس الحبوب والمؤن أو ستائر في بعض الأحيان لتكوين الفراغات المخصصة للنساء وأخرى للرجال والضيوف وفراغ آخر للطبخ كما يبين الشكل رقم ٥ للخيمة السوداء التي هي في الأصل سكن للبدو في مناطق تمتد من أفغانستان عبورًا بسيناء وفلسطين إلى شمال أفريقيا.

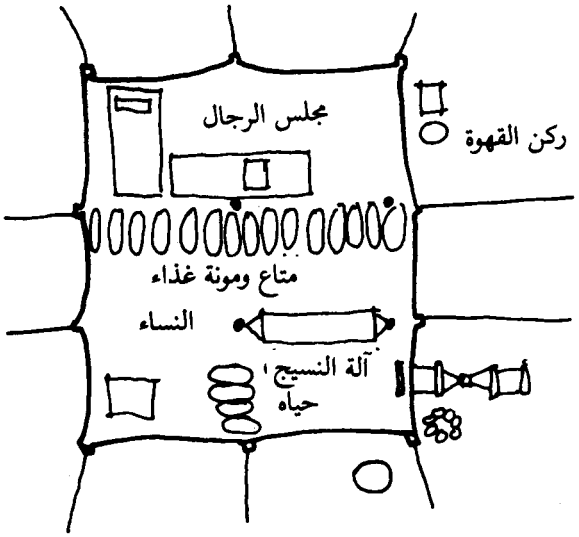

شكل رقم ٥. الخيمة السوداء [٢١].

وهناك نموذج آخر كما يبين الشكل رقم ٦ وهي خيمة قبائل الكبابيش بالسودان حيث نجد أن فراغ الخيمة قد قسم إلى عدة فراغات والنساء يدخلن من مدخل خاص بهن خلف الخيمة. ويحاط مكان النوم الرئيسي بستائر تقفل عند حضور الضيوف [٢١].

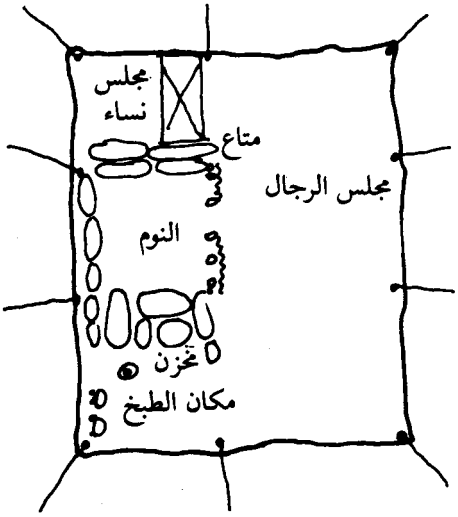

شكل رقم ٦. خيمة قبائل الكبابيش [٢١].

مساكن النوبة (شمال السودان وجنوب مصر)

يوضح الشكل رقم ٧ نموذجًا لبعض مساكن أهل النوبة الذين يقطنون في شمال السودان وجنوب مصر، ففي هذه المساكن يظهر بوضوح تقسيم المسكن إلى فراغات مخصصة ليتم الدخول إلى المسكن عبر مدخل خاص، لا يفتح مباشرة على الفناء الداخلي، ويؤدي إلى مدخل الرجال والضيوف، دون المرور بالفراغات الداخلية الخاصة بالعائلة [٢٢].

مساكن مزاب بجنوب الجزائر

يظهر الشكل رقم ٨ مسكنًا من طابقين في منطقة مزاب بجنوب الجزائر، خصص الطابق الأرضي للضيافة والمعيشة ويظهر المدخل الرئيسي من خلال صالة تؤدي إلى المضيف وباب للعائلة، وقد خصص الطابق العلوي للنوم والعائلة وبه إيوانات مطلة على الفناء الداخلي لتأكيد الصلة والتداخل بين الفراغات. كما يوجد سلّمان للصعود إلى أعلى وفي رأيي أن ذلك مهم لتأكيد الخصوصية والفصل بين العائلة والرجال والضيوف [٢٣].

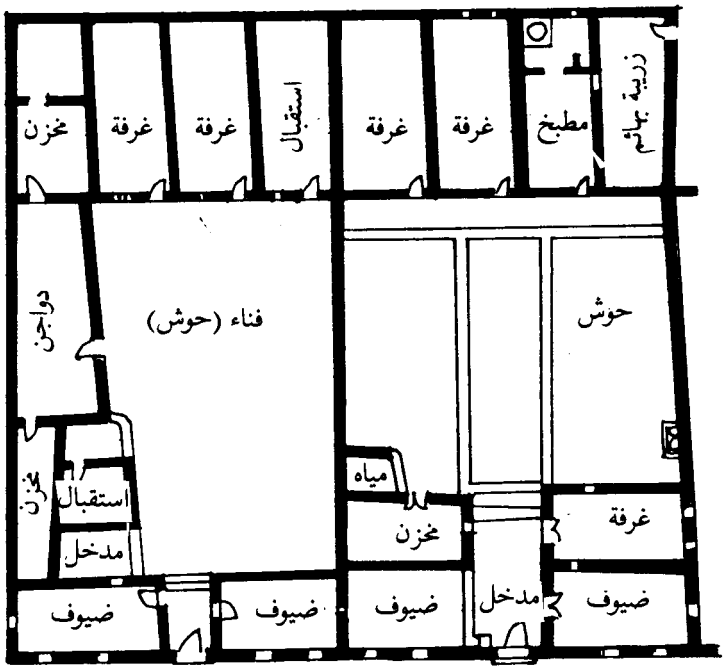

شكل رقم ٧. مساكن النوبة بمصر والسودان [٢٢].

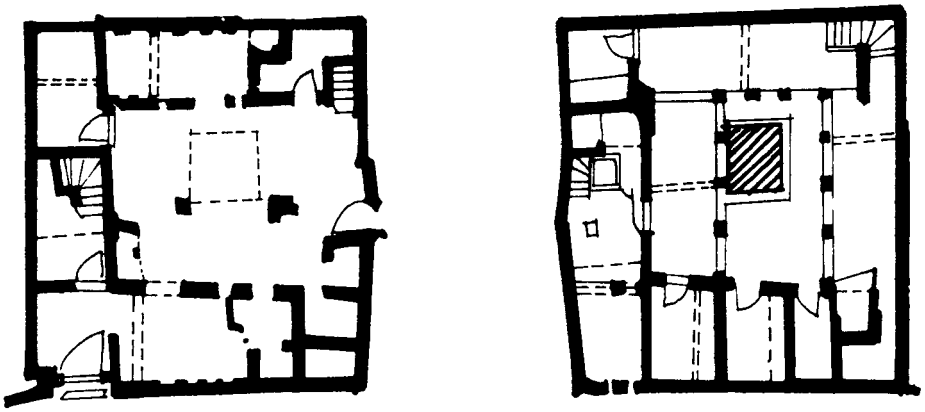

مسقط علوي مسقط أرضي

شكل رقم ٨. مساكن مزاب بجنوب الجزائر [٢٣].

مساكن الأتراك في الأناضول

يوضح الشكل رقم ٩ مجموعة سكنية لإحدى القرى التركية في هضبة الأناضول. ونـلاحظ أنـه لصعوبة الطقس في المنطقة، فإن مباني المساكن متلاصقة ببعضها البعض ومغطاة تغطية كاملة لتجنب الصقيع. إلا أن مبدأ الخصوصية متوافر على مستوى المجموعة [٢٣].

فسكن العائلة يتكون من عدة مساكن صغيرة مكتفية ذاتيًا ويوجد لكل مجموعة من المساكن بيت للضيافة مجهز لاستقبال الضيوف من الرجال بمداخل منفصلة. وفي بعض الأحيان يكون بيت الضيافة هذا مبنيًا فوق مسطبة عالية أو مرتفع صغير لتمييزه عن المساكن الأخرى.

المسكن الإسلامي الحضري القديم

يوضح الشكلان رقما ١٠، ١١ مساقط لمسكن جمال الدين الذهبي بمصر. حيث تبرز الحلول التي فرضتها الخصوصية بتشكيلها للفراغات والوظائف المختلفة لها. كما يوضح الشكلان رقما ١٢، ١٣ التفاصيل المعمارية التي كانت تستخدم لمعالجة الفتحات والفراغات بالمساكن. ويمكننا تلخيص سمات ذلك المسكن في الآتي:

المدخل المنكسر: وهو المدخل الرئيسي الذي يفتح عليه الطريق بطريقة غير مباشرة وينعـطف يمينًـا وشـمالاً بزوايا قائمـة وممر قصير ينتهي حيث الفناء أو الصحن الرئيسي للمسكن، وبهذه الطريقة يمكن للمدخل أن يكون ساترًا لأصحاب المسكن من أنظار المارة في الطريق، حتى لو ظل الباب الرئيسي مفتوحًا.

الفناء أو الصحن: وظائف الصحن الداخلي متعددة وكثيرة، فهي إلى جانب وظائفه المنـاخية والجـمالية، فإن هذا الفناء يؤدي خدمة اجتماعية ودينية. فهو يحجب أهل الدار وخاصة النساء عن أعين الغرباء من زوار وجيران. وتتعدد الفناءات بالمسكن فنجد فناءً خاصًا بالرجال وآخر للنساء وثالثًا للخدمة والخدم. وهذا التخصص في الوظائف يساعد كثيراً في تأمين سر الدار وجعل ساكنيه يتصرفون بحرية، كل في فنائه دون أن تنتهك خصوصيته.

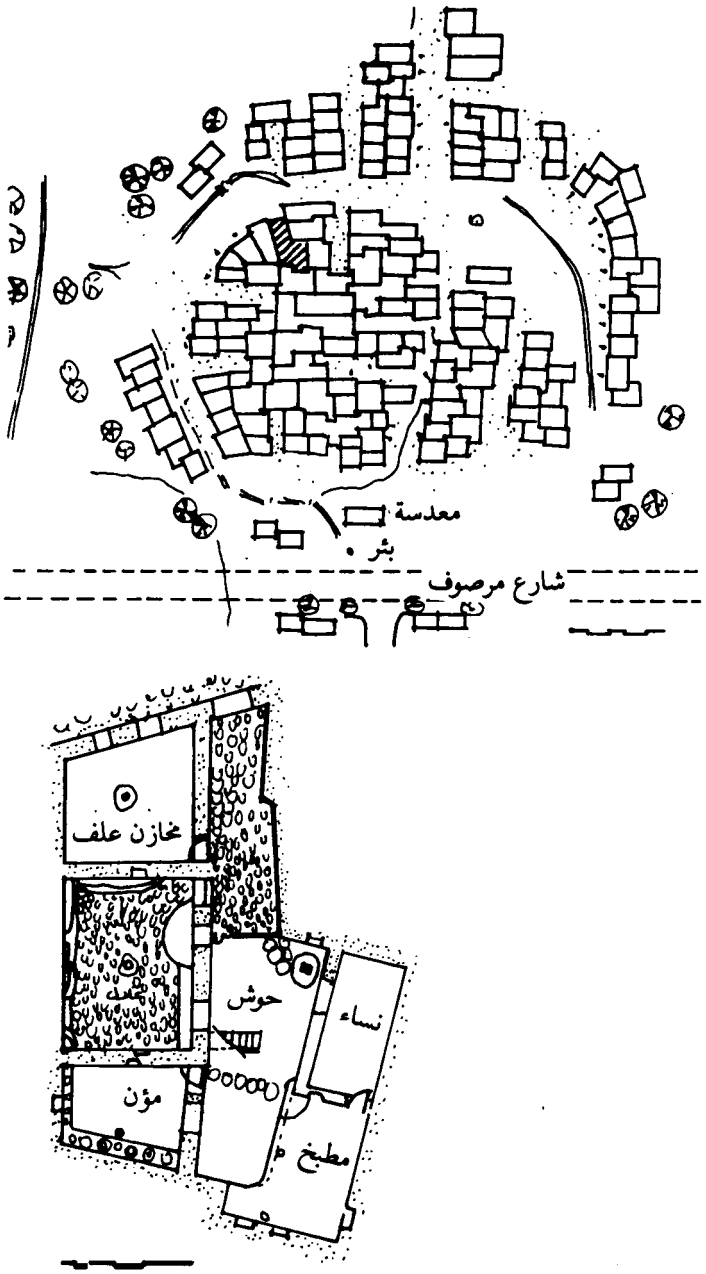

شكل رقم ٩. مساكن بالأناضول ـ المجموعة السكنية والخلية السكنية [٢٣].

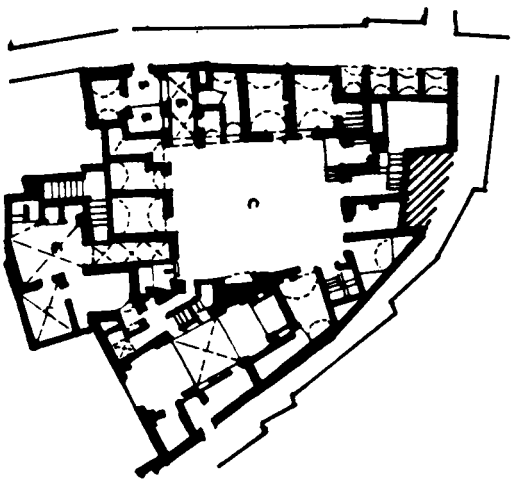

مدخل A:
دركاه B
مسطبة البواب B
دهليز B
حوش C
خدمات C
سلم إلى المقعد D
سنده C
دكان F
بئر مياه L

شكل رقم ١٠ . المسقط الأرضي لمنزل جمال الدين الذهبي [١٢].

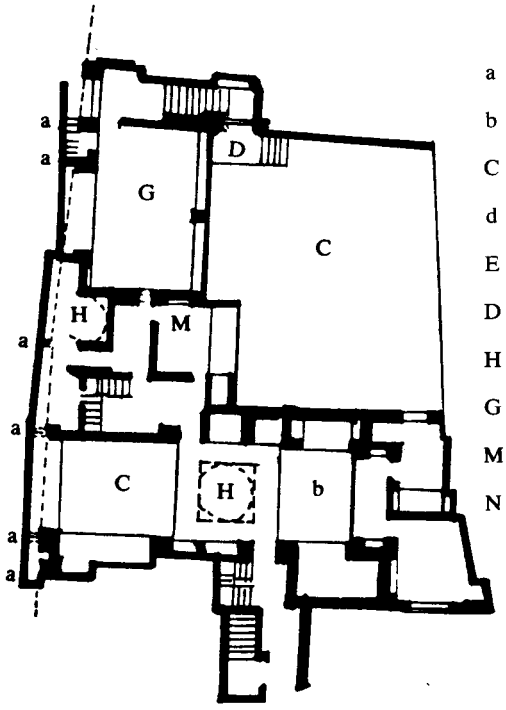

بروز على كولبيل a
إيوان القاعة b
إيوان C
مشربية d
الحوش E
السلم إلى المقعد D
درقاعه H
المقعد G
غرفة M
غرفة N

شكل رقم ١١ . المسقط العلوي لمنزل جمال الدين الذهبي [١٢].

شكل رقم ١٢ . معالجة الفتحات في الواجهة المطلة على الدروب الخارجية [١٢].

تقسيم المساكن إلى وحدات: فهناك قسم للرجال وآخر للنساء وثالث للخدمة والخدم ورابع للحيوانات ولكل قسم كما ذكرنا فناؤه الخاص. وهذا التخصيص للوظائف يتيح الفرصة لحرية الحركة والعمل دون تطفل أو فضول من الغرباء.

المشربيات: وهي قطع من الخشب صغيرة الحجم، صممت بأشكال هندسية لتغطية الفتحات والنوافذ المطلة على الدروب والفناءات بحيث تسمح بمرور الهواء والضوء مع تأكيد حماية أهل البيت (خاصة النساء) من أنظار الغرباء والمتطفلين. ولا تفوتنا الإشارة إلى استعمال الملاقف أو البراجيل في بعض المناطق لأغراض مناخية فهي على الرغم من وظيفتها

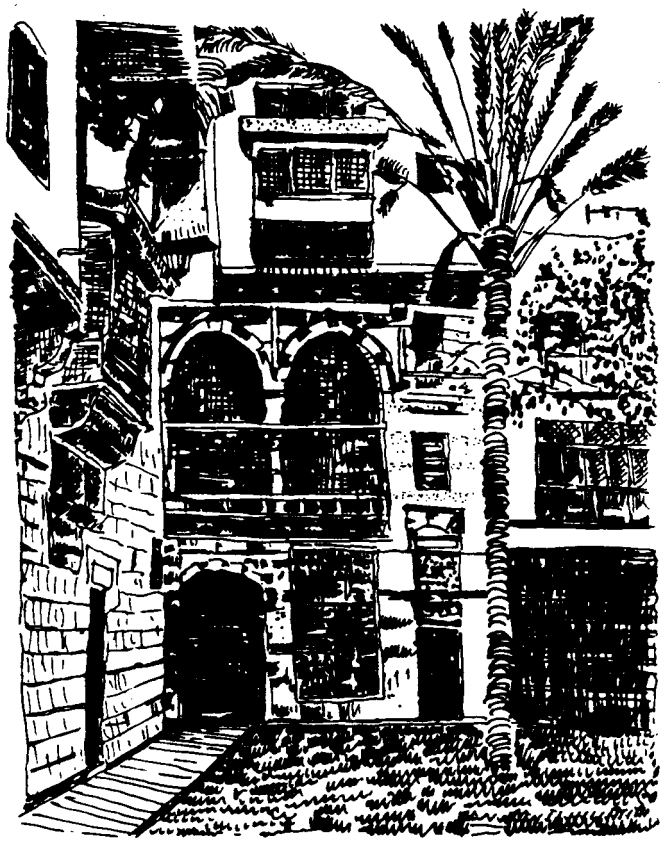

شكل رقم ١٣ . معالجة الفتحات المطلة على الفناء [١٢].

الأساسية، التي هي دفع الهواء الملطف من أعلى الأسطح إلى داخل القاعات وبهذه الطريقة تقلل من استخدام النوافذ بالمبنى وبالتالي توفير قدر أكبر من الخصوصية داخل هذه القاعات.

٤ ـ الخصوصية والبيئة السكنية في مدينة أم درمان

يذكر المؤرخون أن مدينة أم درمان نشأت بعد سقوط الخرطوم (١٨٨٤م)، حيث أمر الإمام المهدي باتخاذ البقعة التي عرفت فيما بعد بأم درمان مقراً لدولته. وحسب ما يذكره المؤرخون فإن المدينة كانت مقسمة إلى قطاعات عسكرية. حيث خصصت لكل فرقة من

فرق الجيش الـوطني ـ الـذي كان يتألف من قبائل السودان المختلفة ـ قطاعًا خاصًّا بها (الشكل رقم ١٤).

ولعل نشأة أم درمان كمدينة حربية، ظلت تضم معسكرات الجيش المتلون الأعراق، قد ساعدت في إضفاء الطابع المميز للمدينة دون سائر المدن السودانية الأخرى. فسرعان ما تطورت المعسكرات الحربية إلى مستوطنات سكنية لتوفر الاستقرار لأبناء العشائر والقبائل المنصهرة في الجيش بعد قيام الدولة. وتولت كل عشيرة تخطيط وتنظيم المستوطنة الخاصة بها، ناقلة أسلوب ونمط التخطيط والتراث المعماري المحلي للمنطقة التي قدمت منها ويوضح ذلك شكل رقم ١٥. لذا نجد أنه قد اجتمعت في المدينة أنماط وطرز مختلفة للبناء. ولكن بالرغم من الاختلاف والتباين في طرز البناء، إلا أن السمة البارزة للعمارة في أم درمان هي التمسك

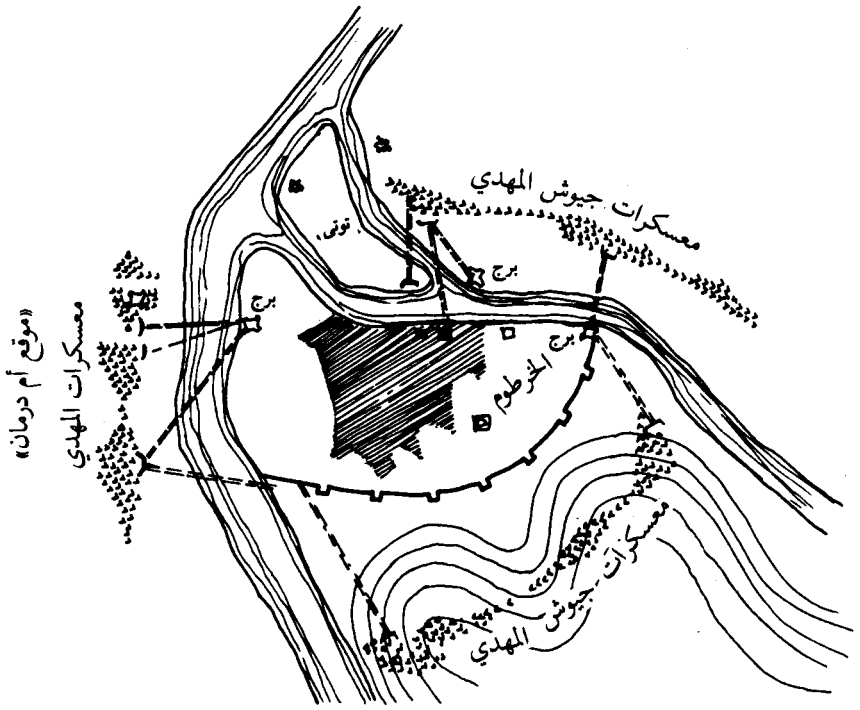

شكل رقم ١٤. أم درمان: معسكرات فرق الجيش الوطني [٢٤].

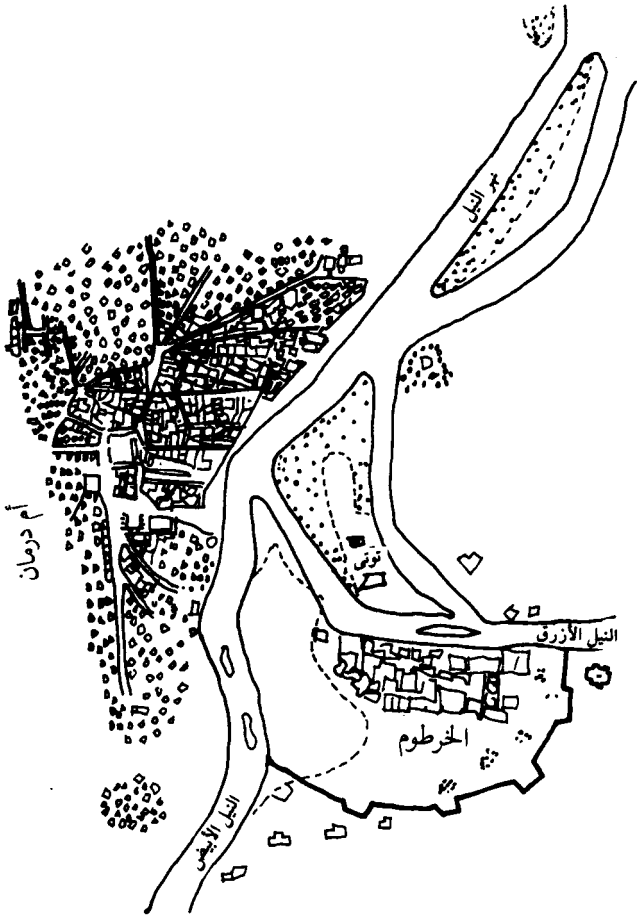

شكل رقم ١٥ . أم درمان العاصمة الوطنية [٢٥].

بالسور والأحواش والديوان (حجرة الضيافة للرجال). وقد وصفت أم درمان بأنها مدينة تتميز بطابع عربي. حيث شيدت معظم مبانيها من الطين وسقفت بسيقان الذرة. وكانت دور الأغنياء وعلية القوم محاطة بأسوار من الطين، بينما أحيطت منازل العامة بزرائب (أسوار من الشوك) [٢٦].

الخصوصية والتصميم الحضري للبيئة السكنية في أم درمان

بعد غزو السودان بواسطة البريطانيين (١٨٩٨م)، رأت سلطات الاحتلال أن تبقى مدينة أم درمان سكنًا للسودانيين وميدانًا لنشاطهم التجاري والاجتماعي. إن المستعمر لم

يتدخل ويأمر بإعادة تخطيط المدينة على نحو ما حدث في مدينة الخرطوم (العاصمة الجديدة). وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها على تطور المدينة وساعدت إلى حد كبير في أن تحتفظ المدينة بطابعها السوداني. وتمسكها بالنموذج الذي نجده في الحي القديم في المدينة الإسلامية.

فمدينة أم درمان مقسمة إلى أربع مناطق حضرية. كل منطقة تسمى ربعًا. وكل ربع مقسم إلى عدد من الحارات يتراوح ما بين أربع إلى خمس. حيث تضم الحارة الواحدة عددًا من الأحياء الصغيرة قد تصل إلى ثلاثة أو ربما تكون حيًا واحدًا كبيرًا. وهذا التقسيم الحضري للمدينة هو انعكاس للتسلسل الاجتماعي والعرقي المكون للعشائر والقبائل التي كانت تكون الجيش. فحينما يكون سكان الحي الواحد من العشيرة نفسها يظل سكان الربع بأكمله من قبيلة واحدة أو من إقليم واحد.

أما التكوين الأسري فقد أفرز مستوى ونوعًا آخر من التقسيمات الحضرية، وهو ما يسميه أهل أم درمان بالفريق. فالفريق هو المجموعة السكنية المكونة من الأشخاص ذوي القربى. والذي ينقسم بدوره إلى مربعات كبيرة (مربوعات) خصص كله أو جزء منه لكل عائلة لبناء مسكنها. فالعائلة في أم درمان هي من نوع العائلة الممتدة، حيث نجد جميع أفراد العائلة يعيشون في مسكن واحد. وقد كان للنشأة الدينية والعسكرية والروابط القبلية لسكان المدينة أثرها في تقوية الصلات الاجتماعية بين المجموعات السكنية الموجودة في المنطقة نفسها، مما خلق نوعًا فريدًا من الخصوصية.

الجدير بالذكر أن تخطيط المدينة جاء تلقائيًا وعفويًا لم يلتزم فيه السكان بقواعد أو نظريات تخطيطية معروفة. وهذا ما يؤكده الشكل رقم ١٦ الذي يوضح جزءًا من المدينة بشوارعها الضيقة والمتعرجة ودروبها غير النافذة ومربعاتها ذات الأشكال غير المنتظمة. وهذا التخطيط العشوائي للحارة القديمة في أم درمان حدث كرد فعل مباشر للعلاقات الاجتماعية والصلات العرقية المتميزة للسكان وخصوصية كل مجموعة. كما هو أيضًا انعكاس للعوامل الطبيعية في الخارج كما يوضحها (الشكلان رقما ١٧، ١٨). وحينما نلقي نظرة إلى شبكة الطرق والأزقة المتعرجة الناتجة من التكوين الحضري نجدها متشعبة ومتشابكة في تناغم مستمر متخللة كتل المباني حتى ليظن الشخص أن هذه الطرقات نحتت من الكتل المتراكمة للمساكن. فهي تعتبر جزءًا منها وليست ممرًا يؤدي إليها. وقد نتج من هذا التشعب

شكل رقم ١٦ . أم درمان الحارة القديمة بشوارعها الضيقة ودروبها غير النافذة [٢٧].

شكل رقم ١٧ . الدروب والطرق غير النافذة.

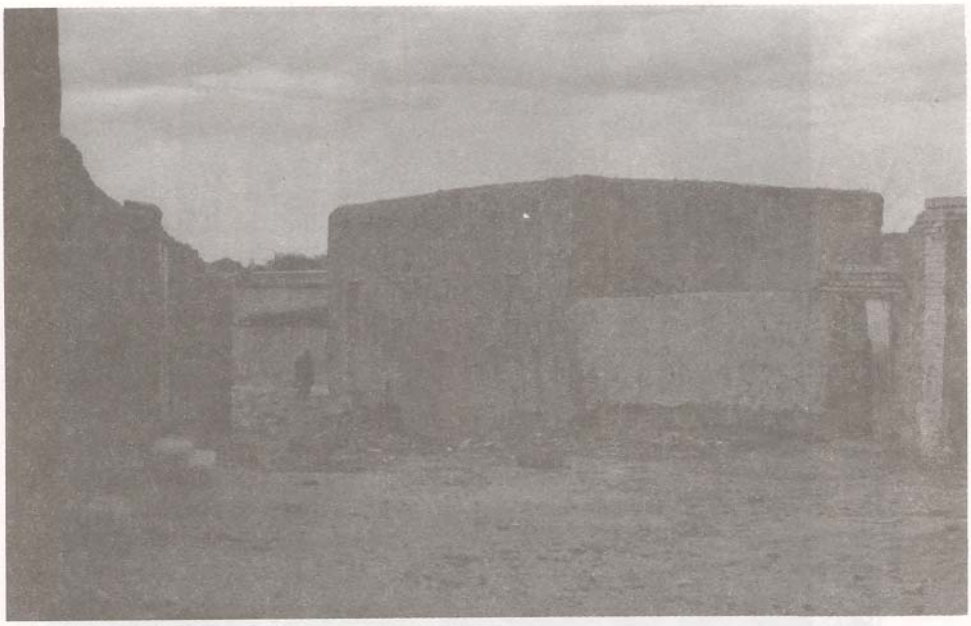

شكل رقم ١٨ . الطرقات المتعرجة.

والتشابك للطرقات النسيج الحضري لأحياء المدينة والانتشار التلقائي للوحدات السكنية التي هي أساس التصميم الحضري للحارة، تاركة الطرق والأزقة تتشكل بين كتل المباني كما يوضحها الشكل رقم ١٩ . فالفراغات السكنية بهذا التكوين تبدو أكثر إنسانية، حيث إنها متغيرة في الأشكال والأحجام. وتوصف بأنها كثيرة التنوع [٢٨].

واختلف هذا الوضع عندما بدأت لجنة تخطيط المدن تتبنى نموذجًا جديدًا في تخطيط الامتدادات الجديدة للمدينة (مدينة الثورة شمال أم درمان ١٩٥٩-١٩٦٠م) والتي يوضحها الشكل رقم ٢٠ فأصبحت شبكة الطرق هي الأساس في التخطيط تاركة الوحدات السكنية لتملأ الفراغ بين الشوارع في نظام شبكي ممل، ومن ثم فقدت المجموعة السكنية صبغة الخصوصية التي تتمتع بها المناطق التقليدية. كما أدت الزيادة غير المحتملة للسكان كنتيجة للهجرة والنزوح بسبب الكوارث الطبيعية وغيرها (المجاعة والحروب)، إلى انفلات زمام الأمور. وفقدت سلطات تخطيط المدن السيطرة على الموقف، فلم تعد قادرة على إعداد الخطط السكنية التي تستوعب الأعداد المتزايدة من السكان. فنشأت مستوطنات السكن

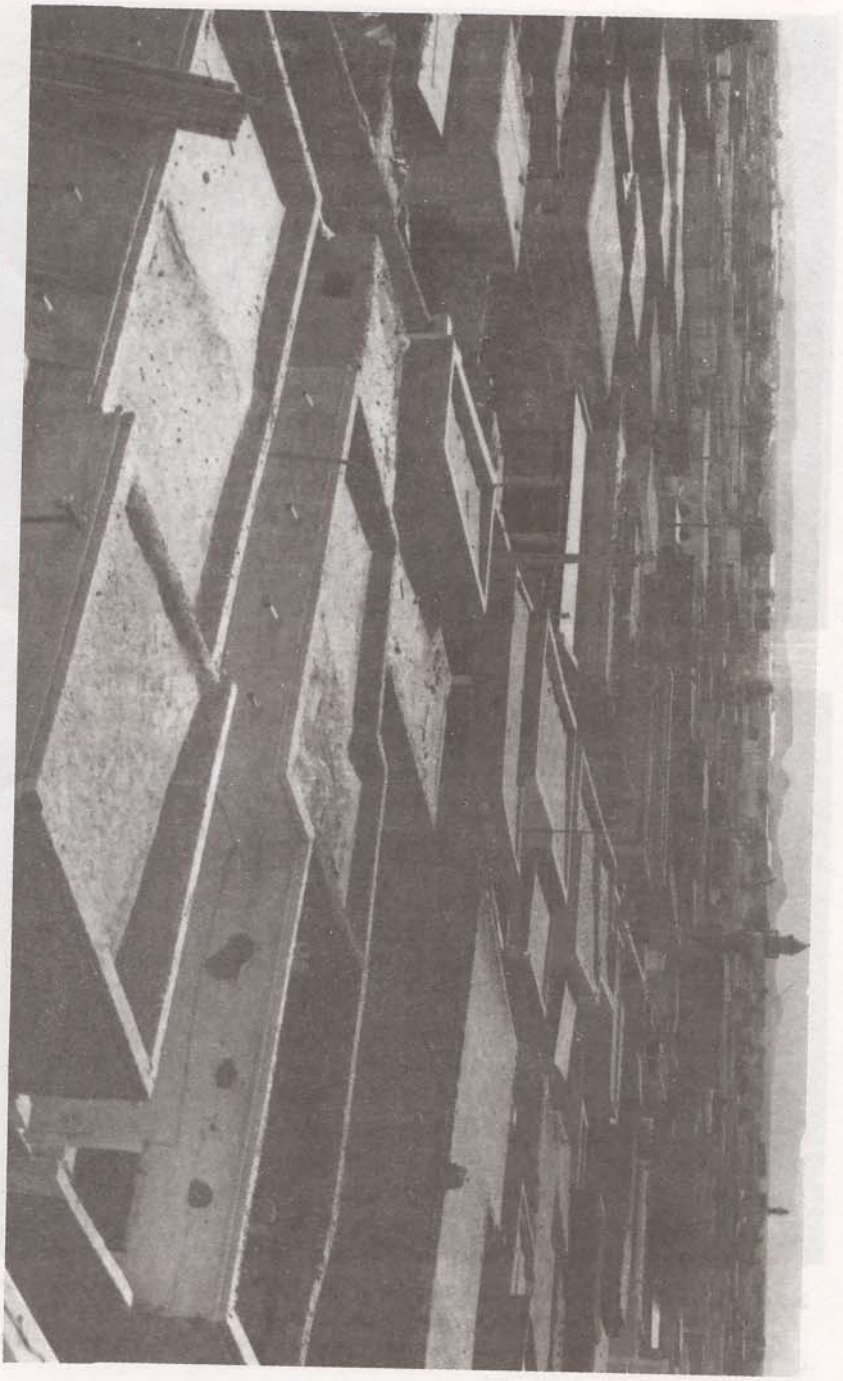

شكل رقم ١٩. التكوين الحضري مجسدًا كتل المباني المتراكمة تتخللها الطرقات والأزقة (مأخوذ من وزارة الثقافة والإعلام بالخرطوم).

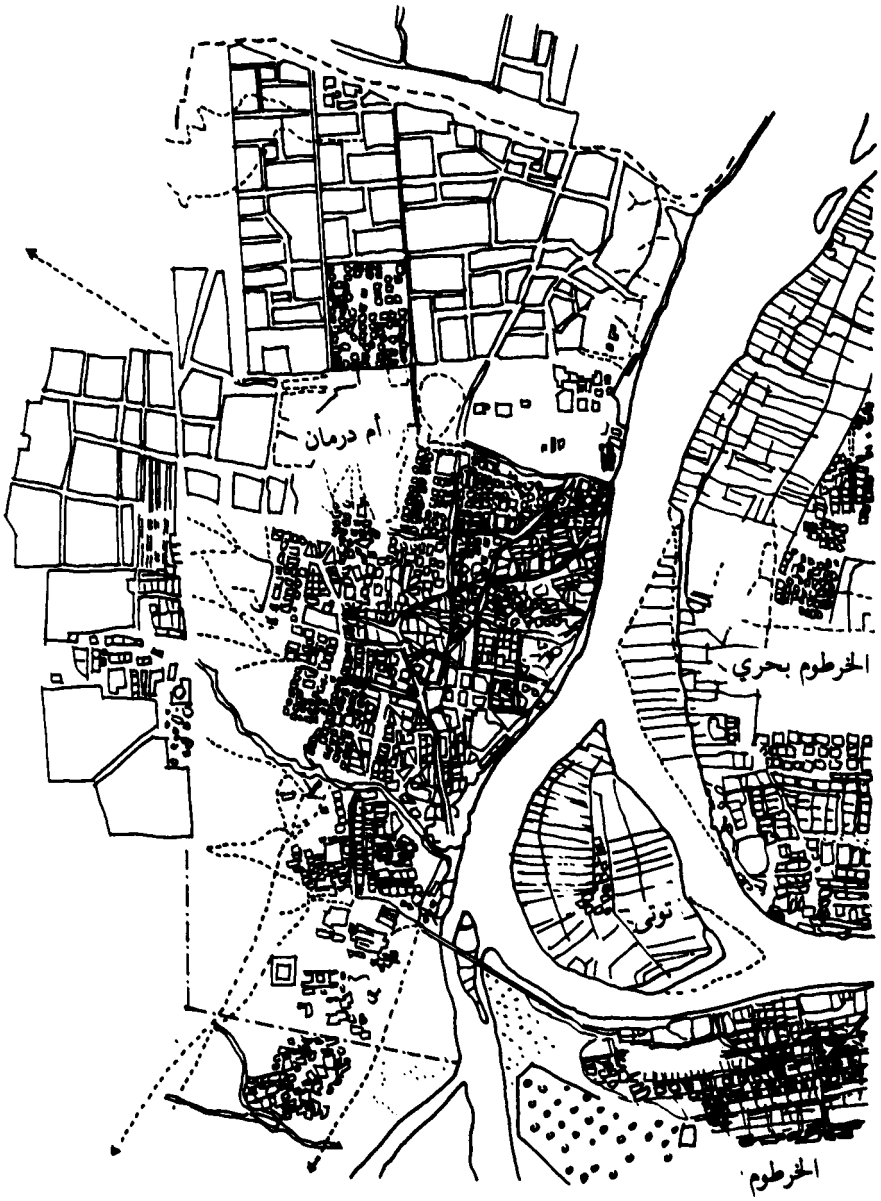

شكل رقم ٢٠ . أم درمان التخطيط القديم والحديث [٢٩].

العشوائي حول المدينة (أمبدة غرب أم درمان). وقد أظهرت الدراسات الميدانية أن مستوطنة أمبدة تضم نحو ٢٨٪ من سكان أم درمان. وتفتقر إلى الخدمات الأساسية خاصة خدمات المياه والصرف الصحي. وأوضحت الدراسات كذلك التباين السافر بين المساحات الداخلية والخارجية. فالأولى دائمًا نظيفة ومنتظمة، أما الخارجية فكانت دومًا مهملة. هذا بالإضافة إلى وجود قطعان المواشي بأعداد كبيرة في الأحواش بين المساكن [٣٠]. وتظهر الصورة المنقولة عن المستوطنات العشوائية في مجملها الهم الكبير الذي سيطر على المواطن في تأمين مأوى له أولاً ثم الحفاظ عليه من السلطات التي قد تقوم بإزالته في أي وقت، وهو هاجس ظل يساعد على عدم الاكتراث بمسائل الخصوصية التي تبدو ترفًا في مثل تلك الأحوال.

المسكن في أم درمان

المسكن التقليدي في أم درمان هو الوحدة الرئيسية في نظام تخطيط المدينة والتصميم الحضري للأحياء. فالبيت التقليدي يمثل الملاذ الآمن من عوامل البيئة القاسية في الخارج. فبمجرد الدخول من الباب الرئيسي عبر الفناء الأمامي يحس القادم بالراحة والانتماء للمكان. ويلاحظ أن الغرف تتوزع بين ما هو عام وما هو خاص في التسلسل المتوازن للفراغات المكونة للمسكن، مما يؤكد أصالته واحترام الخصوصية فيه. فالبيت التقليدي في أم درمان يمثل في الواقع مجموعة من الخلايا أو الوحدات الصغيرة مرتبة داخل الحوش الرئيسي حسب الفئات في العائلة. وفي بعض الأحيان نجد أن الترتيب يقوم حسب تسلسل الأسر الفرعية المكونة للأسرة الممتدة. والنظام المتبع في التصميم لمثل هذه المستوطنة الصغيرة (من مساحتها حوالي مربوع كامل أو جزء منه) هو وضع قسم الرجال وبيت الضيافة (الديوان) أقرب ما يكون إلى المدخل الرئيسي وكذلك الفناء الرئيسي، ثم قسم النساء والأطفال والحرم الخاص بهم إلى الداخل، وأخيرًا حرم وبيوت الخدمة. وتتشكل الأحواش بين هذه البيوت وذلك إما باستخدام حوائط داخلية فاصلة أو باستخدام كتل المباني المختلفة (الشكل رقم ٢١). وفي أم درمان القديمة لا ترتفع المباني أكثر من طابق واحد. وقد سنت السلطات البلدية فيما بعد بعض القوانين المنظمة للبناء منها مثلاً جواز البناء مباشرة ناحية الجار وعدم السماح بالبناء على السور مباشرة إلا في الحالة التي يكون فيها البناء مطلاً على

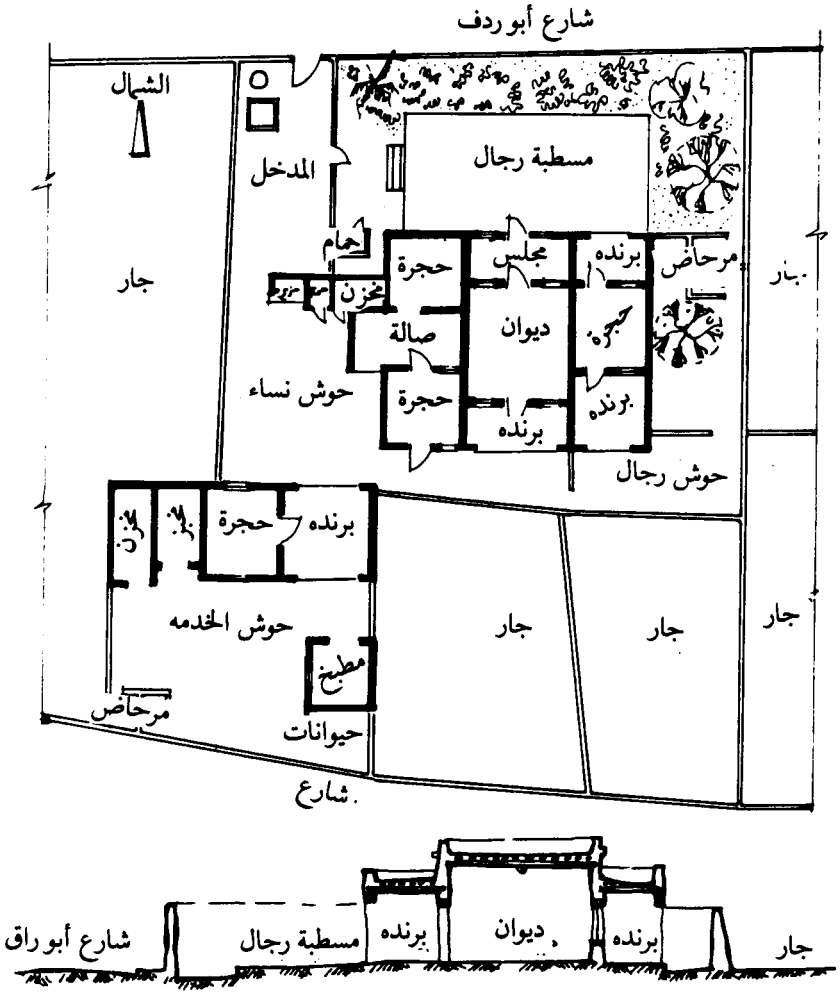

شكل رقم ٢١ . نموذج للمسكن التقليدي في أم درمان .

الشارع الرئيسي ، وكذلك ضرورة ارتداد المباني من حائط الجار بمقدار مسافة لا تقل عن ارتفاع المبنى . وقد طبقت هذه القوانين على جميع المباني الجديدة فيما بعد . ويمكن تلخيص السمات الرئيسية للمسكن التقليدي في النقاط التالية :

١ ـ السور الخارجي والذي يتم بناؤه أولاً بارتفاع قد يصل إلى ثلاثة أمتار.
٢ ـ تقسيم المسكن إلى عدد من الأحواش أهمها حوش الرجال ، وحوش النساء وقد

يكـون هنـاك حوش ثالث للخـدمـة. حيث يجب أن توفـر هذه الأحـواش الخصـوصية لمستخدميها وذلك بفصلها بأسوار داخلية يمكن الدخول إليها عبر أبواب ثانوية.

٣ ـ المدخل الرئيسي للمسكن والذي يجب أن يوفر إمكانية دخول الرجال والنساء إلى الأحواش الخاصة بهم دون انتهاك لخصوصية أي فئة.

٤ ـ حجرة الضيافة (الديوان) يجب أن تكون الأقرب إلى المدخل الرئيسي ويمكن الدخول إليها عبر مساحة مظللة مطلة على الفناء الرئيسي.

٥ ـ حيث لا توجد الحمامات العامة كما هو الحال في معظم المدن القديمة، فإن لكل مسكن حمامه الخاص به. وقد يكون هناك حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء والأطفال. وقد تستخدم كتلة الحمام في الفصل بين الأحواش.

٦ ـ تصمم النـافـذة بدقـة متنـاهية حيث تقسّم إلى أربعة أجزاء، لكل جزء منها ضلفتان، تفتح العليا منها وتبقى السفليتان مغلقتين في أغلب الأحيان. وقد يغطى الجزء الأسفـل من النـافـذة بنوع بسيط من المشربيات (الشكل رقم ٢٢). أو تكون الضلف الخارجية من الشيش والداخلية من الزجاج (الشكل رقم ٢٣).

وقد ظلت مدينة أم درمان محافظة على هذا النمط من البناء إلى أن فرضت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية نظام البناء متعدد الطوابق بحيث تسكن الأسرة في الطابق الأرضي وتقوم بتأجير الطابق العلوي لتوفير مصدر مالي إضافي لتغطية تكاليف المعيشة المرتفعة يومًا بعد يوم. وقد أفرزت هذه المشكلة نوعًا من السكن المركب في البيئة السودانية بصفة عامة وليس في مدينة أم درمان فقط. وبالطبع فإن هذا النوع من المساكن يؤثر على خصوصية المسكن والمسـاكن المجـاورة (الشكـل رقم ٢٤). ويبقى السؤال عن كيفية علاج هذه المشكلة؟ ومدى تأثير هذا النوع من التطور على تشكيل فراغات المسكن وهل يمكن أن يلغي الخصوصية التي كانت توفرها المساكن التقليدية؟ أم أن الحال سيرجع إلى ما كان عليه إذا توفرت أسباب العلاج للمشكلة؟!

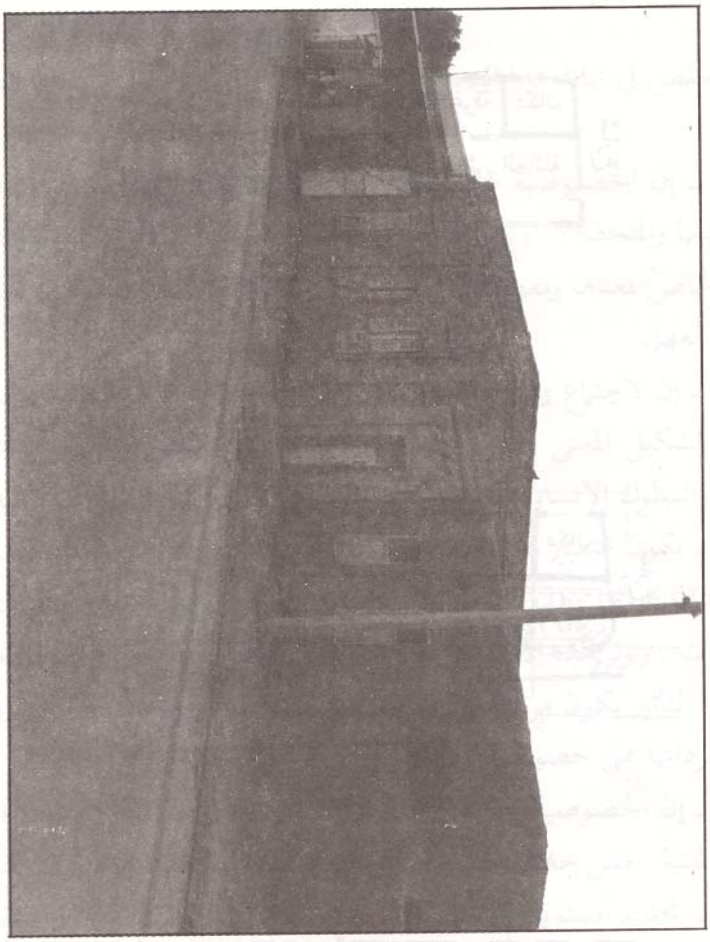

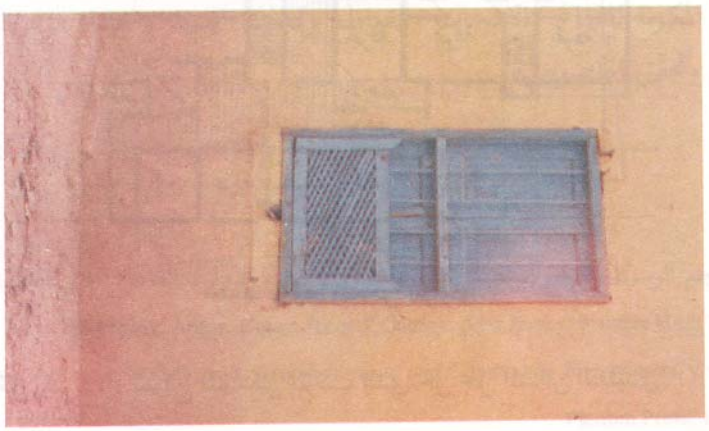

الشكلان رقما ٢٢ و٢٣ . معالجات النوافذ المطلة على الدروب .

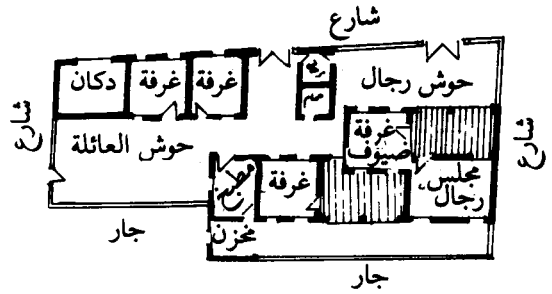

مسقط المسكن التقليدي الأصل

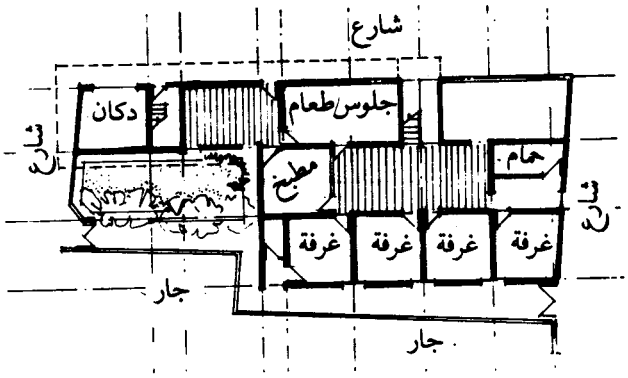

مسقط أرضي المسكن المركب

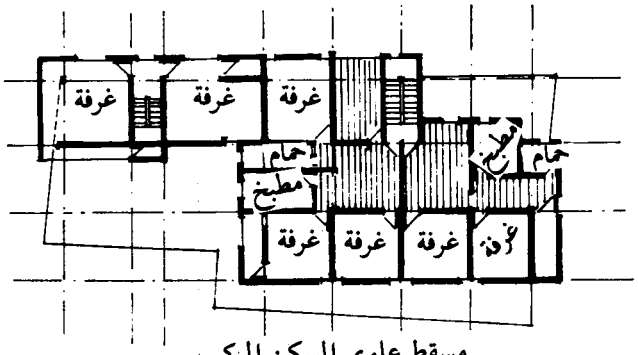

مسقط علوي المسكن المركب

شكل رقم ٢٤ . نموذج للمسكن المركب الذي حل محل المسكن التقليدي.

الخلاصـــــــة

نخلص في نهاية هذا البحث إلى أربع نقاط أساسية حول مسألة الخصوصية نوجزها فيما يلي:

١ ـ إن الخصـوصية ظاهـرة في غاية التعقيد والتنـوع، وتمارس في كل المجتمعات البدائية منها والمتحضرة. وإن الحاجة إليها لاتزال قائمة في كل زمان ومكان. ولكل مجتمع تفسيره الخاص لمعناها ومفهومها، الأمر الذي ينتج عنه التباين الظاهر في أسلوب ممارستها والتعامل معها.

٢ ـ إن لاجتماع وتمازج العناصر الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والسياسية ودورها المؤثـر في تشكيل المعنى والمفهـوم للخصوصية واللذين يأخذان صورًا متعددة تتغير بتغير الظروف والسلوك الإنساني وحاجة الفرد والمجتمع لها في الزمان والمكان المحددين.

٣ ـ يكون التعبير عن الخصوصية من خلال خمسة أبعاد هي المحصلة لامتزاج تلك العنـاصر المذكورة. وهذه الأبعاد هي: البعد الفراغي، والنشاط، والفئات، والحواس، والتشريعات. وتؤثر هذه الأبعاد في تشكيل الحلول المعمارية للمباني في المجتمعات المختلفة. ولعل هذا التأثير يكون مرتبطًا بدرجة كبيرة بمستوى تداخل تلك العناصر وتمازجها، وقوة سيطرة مفرداتها على خصوصية الفرد.

٤ ـ إن الخصوصية ركن من أهم الأركان المؤثرة في تشكيل وتصميم الفراغ المعماري في البيئة المبنية. فمن خلال الخصوصية يمكن تنظيم العلاقات الوظيفية، تقسيم الفراغات وتـرتيبهـا، تحديد مستوياتها وتسلسلها. بالإضافة إلى تصميم واختبار التفاصيل المناسبة للعناصر المكونة للفراغ كالفتحات والقواطع وكذلك اختيار واختبار مواد البناء التي تلائم التصميم وتحقق الخصوصية.

المراجـــــع

[١] المعجم الوسيط إخراج إبراهيم أنيس وآخرون، الجزء الأول، القاهرة: دار الفكر، د.ت.

[٢] Rapoport, Amos. *House Form & Culture.* New Jersey: Printice Hall, 1969

[٣] Altman, Irwin. and Abraham Wandesman, *Neighbourhood and Community Envronment*, Vol. 9, Plenum Press, 1987.

[٤] Hakim, Besim S. Arabic-Islamic Cities. *Building & Planning Principles*. KPI, 1986.

[٥] أحمد، أحمد كمال. *قراءات في علم الاجتماع*. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٧م.

[٦] عيسى عثمان، إبراهيم. *الأصول في علم الاجتماع*. الكويت: كاظمة للنشر، ١٩٨٣م.

[٧] "Stilgoe, John. R." Privacy and Energy-Efficient Residential Site Design. An Example of Context, *J A E*, 1980.

[٨] أبو زهرة، محمد. *أصول الفقه*. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٨م.

[٩] Altman, Irwin. *et al.* Human Behavior and Environment., Vol. 4, *Environment and Culture*. Plenum Press 1980.

[١٠] Philip, P. Housing Design: An Approach to Design. *A J*, No. 24, (1982).

[١١] Kenneth, O. B. Garuther. Architecture Is Space: The Space-Positive Tradition. *J A E*, No. 29/3, (1986).

[١٢] الخولي، محمد بدر الدين. *المؤثرات المناخية والعمارة العربية*. بيروت: جامعة بيروت، ١٩٧٥م.

[١٣] Worpole, Ken. *Towns for People*. Open University, 1992.

[١٤] Muller, Maria S. "Traditional Cultural Identity in New Dwelling of Urban Africa". *Ekistics 307*, Jan. 1984.

[١٥] أكبر، جميل عبدالقادر. *عمارة الأرض في الإسلام*. جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٩٩٢م.

[١٦] Woodson, Elsey E. *Human Factors Design Handbook*, McGraw Hill.

[١٧] بن الهيثم، الحسن. *كتاب المناظر ـ المقالات ١، ٢، ٣ في الإبصار على الإستقامة*، ترجمة وتحقيق، عبدالحميد صبرة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٣م.

[١٨] Doelle, Lesile L. *Environmental Acoustics*. New York: McGraw Hill, 1972.

[١٩] Al Hathloul, Salih A. "Tradition, Continuity and Change in the Physical Environment: The Arab-Muslim City". (Unpublished), *PhD Thesis*, MIT, (1981).

[٢٠] نمر، رزق والعمايرة علي. «النوازل ـ دور مهندس الإشراف في تطبيق تشريعات التخطيط والبناء في المدينة العربية الإسلامية». *دراسات هندسية*، المجلد ٤، (١٩٩١م).

[٢١] The Aga Khan Architecture Award. The Changing Rural Habitat: Vol. 2, Proceeding of Seminar Six.

[٢٢] The Aga Khan Architecture Award. *Reading the Contemporary African City., Proceeding of Seminar Seven.*

[٢٣] The Aga Khan Architecture Award. *The Changing Rural Habitat.:* Vol. 1, *Proceeding of Seminar* Six.

[٢٤] Bay, O. Borelli. *La Chute De Khartoum 1885*. Paris: 1893.

[٢٥] Salatin, R. C. *Fire and Sword in the Sudan 1879*. London, 1897.

[٢٦] أبو سليم، محمد ابراهيم. *تاريخ الخرطوم*. ط٢، بيروت: دار الجبل، ١٩٧٩م.

[٢٧] Doxiadis Associates, *Omdurman Mastreplan*, 1958.

[٢٨] Norberg-Shultz, Christian; Luci. Genius, *Towards A Phenomenology of Architecture*. Rizzole, 1984.

[٢٩] Spa, Meffit. *Consulting Engineers*. Rome: 1972.

[٣٠] أحمد، عادل مصطفى. «المستوطنات الشعبية في الخرطوم الكبرى.»، *مجلة المدينة العربية* (مايو ١٩٨٨م).

Privacy: Meaning and Concept in Shaping The Architectural Space in The Residential Environment

Mahmoud M. Idris
College of Architecture and Planning,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

(Received on 3/12/1413; accepted for pulbication on 27/3/1415)

Abstract. Privacy does not have a simple meaning. It takes on many forms and can be expressed in different ways. It is influenced by many interrelated factors such as: the social, psychological, economic and political ones. It is evident that these factors have great influence on the privacy and eventually play a great role in shaping our living spaces, both the inside and the outside ones.

This paper, however, discusses the problem of privacy in three levels: it's meaning and concept, the factors shaping it and the parameters affecting the design of the residential spaces.